

غواية بونابرت للأقليات.. ومحاولات سلخ مصر عن العروبة والإسلام

وإذا نحن نظرنا -تحييداً- إلى عامل «الغواية الاستعمارية» لشرائح من أبناء الأقليات الدينية -في الشرق الإسلامي- بعصرنا الحديث.. فإننا نستطيع أن نشير إلى «محطات» في التوترات التي صنعتها هذه الغواية -بعدة قرون من مثيلاتها التي صنعتها الغزوة الصليبية [٤٨٩-٦٩٠هـ-١٠٩٦-١٢٩١م] في تاريخنا الوسيط^(١).

● بونابرت [١٧٦٩-١٨٢١م] الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ-١٧٩٨م] والشام.. والذي حلم بإعادة إمبراطورية الإسكندر الأكبر [٣٥٦-٣٢٣ ق.م] الشرقية.. وتحقيق حلم الملك الصليبي القديس لويس التاسع [١٢١٤-١٢٧٠م].. قد أعلن.. وهو في طريقه من مرسيليا إلى الإسكندرية -أنه سيجنّد ٢٠,٠٠٠ من أبناء الأقليات المسيحية في مصر والشرق، ليستخذ منهم مواطني أقدام لغزوته وإمبراطوريته الاستعمارية الفرنسية..

ولقد أثمرت غوايته الاستعمارية هذه ثمرات مرة، عندما سقط في

(١) انظر كتابنا [الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر] طبعه القاهرة - دار السلام سنة

مستنقعيها قطاع من الأرثوذكس المصريين -الأقباط^(١)- الذين كونوا «فليقًا قبطيًا» ضم ألفين من شباب الأقباط- تزيًا بزي الجيش الغازي، وحارب معه ضد الشعب المصري.. تحت قيادة «المعلم» يعقوب حنا [١٧٤٥- ١٨٠١م]- الذي أصبح «جنرالاً» في الجيش الفرنسي الغازي- والذي يسميه الجبرتي [١١٦٧-١٢٣٧هـ - ١٧٥٤- ١٨٢٢م]- وهو مؤرخ العصر-: «يعقوب اللعين»!..

ولقاء هذه الخيانة -التي تركت جراحات عميقة في الصف الإسلامي.. وفي الوحدة الوطنية- والتي بدأت مسيرة السقوط في غواية التبعية للاستعمار الغربي، والمراهنة على دعمه لتغيير هوية الأمة وانتمائها الحضاري.. أعطى بونايرت وخلفاؤه للأقلية النصرانية -من القبط والشوام- بمصر- الوزن الأكبر في إدارة شئون البلاد تحت الاحتلال الفرنسي.. كما عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣- ١٨٠٠م] - الذي خلف بونايرت في قيادة الحملة وحكم مصر- إلى المعلم يعقوب حنا:

«... أن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. فتطاوت النصارى، من القبط ونصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصالح مكانًا، كما صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!»^(٢)..

(١) القبطي هو المصري.. فالمسلمون المصريون هم: أقباط مسلمون. والمسيحيون -النصارى- المصريون هم: أقباط مسيحيون.. لكننا -مجازة للخطأ الشائع- سنستخدم مصطلح الأقباط للتعبير عن النصارى المصريين..
(٢) الجبرتي: [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] ج ٥ ص ١٣٤، ١٣٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

وبعد مشاركة «الفيلق القبطى» للفرنسيين الغزاة فى إبادة سبع الشعب
المصرى- [٣٠٠,٠٠٠ من شعب كان تعداده أقل من
٣,٠٠٠,٠٠٠]- احتفلوا بانتصارات بونابرت على أهل «غزة»
[١٢١٣هـ- ١٧٩٩م].. وكما يقول الجبرتى:

«.. فأظهر النصارى الفرح والسرور، فى الأسواق والدور، وأولموا فى
بيوتهم الولائم، وغيروا الملابس والعمائم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا
فى الشناعة»!^(١).

وفى حماية المستعمر الفرنسى، وفى ظلال سيوفه، أظهروا الكيد
للأغلبية المسلمة.. وبعبارة الجبرتى:

«.. فترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، فركبوا
الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين، ومشوا بالخيول،
وتلفظوا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين، مع عدم اعتبارهم للدين، إلى
غير ذلك مما لا يحيط به الحساب ولا يسطر فى كتاب، ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلى العظيم»!^(٢).

● ولم تنته هذه الغواية -وهذا السقوط- بهزيمة الحملة الفرنسية
على مصر، وجلاء جيشها [١٢١٦هـ- ١٨٠١]. .. ورحيل المعلم يعقوب
حنا وزمرته مع جيش الاحتلال.. وإنما خلف يعقوب -عقب هلاكه-
من سمو أنفسهم «الوفد المصرى»- أى اللاعربى واللاإسلامى - الذى

(١) الجبرتى [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] ص ١١٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق. ص ١١٢.

ذهب إلى فرنسا -بقيادة «نمر أفندى»- عارضاً العمالة على الإمبراطورية الفرنسية، حتى بعد هزيمتها!.. ومعلنًا عن استعداده لتطبيق القانون الفرنسى بمصر، بدلا من القانون الوطنى والفقہ الإسلامى! بل وعارضاً تسخير الكنيسة الأرثوذكسية المصرية لتحقيق حلم فرنسا الكاثوليكية اختراق إفريقيا دينياً!..

وفى هذا الصدد، عرض هذا «الوفد المصرى»:

«الولاء لبونا برت».. وقالوا له: «إن الوفد المصرى، الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.. وإن الجمهورية الفرنسية اليوم -إذا أرادت- يمكنها عن طريق الأمة المصرية، التى ستكون موالية لها، مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا، وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية»! (١).

● وفى الوقت الذى كان هذا «الوفد المصرى» يراهن على فرنسا المهزومة.. كان المعلم يعقوب -قبيل هلاكه- قد كتب «وصيته» إلى إنجلترا الاستعمارية، لتحل محل فرنسا فى ضم مصر إلى السيطرة الغربية، لتغيير هوية مصر، وانتمائها، وعلاقاتها الإقليمية والدولية.. فطلب -فى هذه «الوصية»- التى بعث بها إلى وزير الحرب الإنجليزى -أن ترث إنجلترا مصر من الدولة العثمانية.. وقال:

(١) دكتور أحمد حنين الصاوى: [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص ١٢٩، ١٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م.

«توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار، ولذا يهم الإنجليز، قبل أن تقع الواقعة، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه، فيحققوا مصالحهم السياسية.

وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا، صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها، إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية، ويضمن لها بالتالي أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها.. إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا.. ومن ثمَّ فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر، وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعى الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء!..

وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوة أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين ١٢,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ جندي، يكفون تمامًا لصد الترك عن الصحراء، ولسحق المماليك داخل مصر..»^(١).

فالوصية اليعقوبية، هي باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وماضيها وحاضرها الإسلامى ومحيطها القومى والحضارى - أى الانسلاخ عن العروبة والإسلام-.. وإخضاعها لنفوذ إنجلترا، لتكون

(١) [المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة] ص ١٢٣ - ١٢٥ - ملحق رقم ٦.

موالية لبريطانيا، التى تستأثر بتجاريتها الخارجية. هذا «الاستقلال» الذى تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسلمين الجهلاء»! ..
كما قال المعلم يعقوب اللعين! ..

هذا عن جبهة الأقلية الأرثوذكسية بمصر، فى أولى محطات السقوط فى غواية الاستعمار الغربى - فى عصرنا الحديث - ..

● وعلى جبهة الأقليات اليهودية .. رعى بونايرت حبال هذه الغواية الاستعمارية أيضاً .. وذلك عندما أذاع - وهو على أسوار عكا [١٢١٣هـ - ١٧٩٩م] - نداءه إلى يهود العالم، طالباً منهم التأييد والدعم لطموحاته الاستعمارية فى الشرق الإسلامى، لقاء إعادة زرعهم فى فلسطين .. فقال فى هذا النداء:

«أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد .. انهضوا بقوة، أيها المشردون فى التيه .. لا بد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت العبودية، وذلك الخزي الذى شل إرادتكم لألفى سنة ..

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل .. إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به .. قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سيتقل إلى دمشق المجاورة، التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلته ..

ياورثة فلسطين الشرعيين، إن الإمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم
بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»^(١).

تلك كانت «المحطة الأولى» من محطات الغواية الاستعمارية
للأقليات الدينية الشرقية في عصرنا الحديث.



(١) محمد حسنين هيكل: [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة
والإمبراطورية والدولة اليهودية] - الكتاب الأول - ص ٣١، ٣٢ - طبعة القاهرة
سنة ١٩٩٦م.